مسجد القوس بطرابلس الغرب

دكتور/ سامى نوار

أستاذ الآثار الإسلامية المساعد

كلية الآداب بسوهاج

جامعة جنوب الوادى

مسجد القوس بطرابلس الغرب(*)

مدينة طرابلس الغرب (شكل ١) احدى المدن الساحلية الهامة على البحر الأبيض المتوسط، وهى الآن عاصمة الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، وهى تعتبر مدينة صغيرة المساحة إذا ما قورنت بمدينة الاسكندرية، لذا فقد انتشرت بها المساجد المعلقة ذات الدورين لاستيعاب أعداد المصلين، ولا زالت هذه سمة مساجد طرابلس الغرب حتى الآن.

(*) طرابلس الغرب: أسس الفينيقيون فى القرن ٦ ق.م مدينة أويات مكان مدينة طرابلس الحالية كمركز تجارى هام، واصبحت فى القرن ٣م من أهم مراكز الديانة المسيحية، كما اصبحت عاصمة للمنطقة منذ القرن ٤م، وظلت تحت الحكم الرومانى ثم البيزنطى إلى أن فتحها عمرو بن العاص عام ٢٢هـ/ ٦٤٢م لكن أهلها ثاروا بعد مقتل سيدنا عمر بن الخطاب فأعاد عبد الله بن سعد فتحها عام ٢٧هـ/ ٦٤٧م، وقد سميت طرابلس الغرب منذ دخول الأتراك العثمانيين طرابلس، وكلمة طرابلس تعنى المدن الثلاثة.

الحموى (ابن عبد الله ياقوت بن عبد الله)، معجم البلدان، طبعة أولى، المجلد السادس، مطبعة السعادة، مصر ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، ص٣٤.

الطاهر الزاوى، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، القاهرة، ١٩٥٤، ص٣٤.

Murbat (M), Some Facts about Libya, Malta, p. 122.

مصطفى الشويهدى، مدينة طرابلس، مجلة أثار العرب، العدد الأول، ليبيا ١٩٩٠، ص٢٨.

كان مسجد القوس مكوناً من بيت للصلاه تعلوه قبة، وإن تميز بخاصية هامة، وهى أن هذا المسجد كان أحد أقواس النصر[١] التى أنشأها الامبراطور الرومانى ماركوس أوريليوس[٢]، ثم حول إلى مسجد، عرف باسم مسجد القوس (شكل ١).

وقد ظل هذا المسجد موجوداً حتى القرن ١٧م على الأقل، أما اليوم فقد اختفت القبة التى كانت تعلو قوس ماركوس أوريليوس[٣].

ويعتبر قوس ماركوس وأوريليوس من النوع الرباعى، فهو يحتوى على اربع واجهات، لكل واجهة عقد نصف دائرى، والقوس مبنى بالرخام الأبيض، وهو عبارة عن شبه مربع ٨,٧٠م × ٨م، لذا فالواجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية أعرض من الواجهتين الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية، ويرجع هذا الاختلاف فى العرض إلى وجود تجويفين فى الواجهتين الأكثر عرضاً لوضع تمثال رخامى فى كل تجويف، ويحيط بكل تجويف

---

(١) انتشرت أقواس النصر فى روما والمدن الخاضعة لها، خاصة فرنسا وشمال افريقيا وتوضع هذه الأقواس عند تقاطع الشوارع العظمى والميادين ويرى بعض العلماء أن اقواس النصر ذات أصل هلينستى، بينما يرى الآخرون أنها من أصل رومانى مشتق من الأبواب التى كانت تقام بمناسبة الانتصارات العسكرية.

Picard (Gilbert) Les Troplzess Romains Contrilution a la Histoire de La Religion et de L'art Triomphal de Rome, Paris, 1959, p. 122.

(٢) ماركوس أوريليوس حكم من ١٦١م – ١٨٠م استرد شرق الامبراطورية من البارثيين بعد حروب من١٦١–١٦٥م، وحافظ على ارض الدولة.

سيد أحمد الناصرى، تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسى والحضارى، دار النهضة العربية ١٩٧٥، ص٢١٩.

(٣) قامت هيئة الاثار الليبية عام ١٩١٢م بإجراء حفريات حول القوس استمرت حتى سنة ١٩١٨م، كما قامت بترميمه فى الفترة من ١٩٣٦–١٩٣٧م، بعد إزالة المبانى الملاصقة له ورفع الأتربة التى كانت تغطيه.

د. محمد على عيسى، هل تم تحويل قوس ماركوس إلى مسجد فى العصور الوسطى، بحث فى مجلة أثار العرب، طرابلس، العدد الثانى مارس ١٩٩١م، ص٢٥.

عمودين كورنثين، بينما يكتنف كل عقد عمودين من نفس الطراز، وبذا يصبح عدد الأعمدة اربعة أعمدة، لكل واجهة من الواجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية، بينما يوجد عمودان فى أطراف الواجهتي[1] الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية، يكتنفان العقد وقد زخرفت كوشات الأقواس بنحت بارز للآله أبولو على عربة يجرها اسدان مجنحان والآلهة منيرفا تركب عربة يجرها أبو الهول، بينما زخرفت نواصى القوس بنقش بارز لأوراق نباتية طبيعية لأوراق نخيلية وعناقيد وأوراق ثمار العنب، مع بعض الزخارف الهندسية البسيطة من مربعات ودوائر ومثلثات ومكعبات، ووضع قوس النصر وسط طريق عريض لكى تمر بجواره العربات بحيث يمكن مشاهدته وقراءة نقوشه (لوحة١).

يرى عالم الاثار الإيطالى سلفاتورى أوريجيما Salvatore Aurigemma استناداً إلى المجسات التى عملها فوق سطح القوس وجود طابق علوى، لوجود أساسات لهذا الطابق من الحجر، بينما القوس نفسه قد بنى بالرخام الأبيض، ويرجع سلفاتورى أوريجيما هذا الطابق العلوى إلى العصر الرومانى[2]، كما يرفض- كذلك أن ينسب هذا الطابق العلوى إلى العصر الإسلامى، وسوف نناقش هذا الرأى ونثبت عدم صحته فيما يلى:

أولاً: يعتقد سلفاتورى أوريجيما أن القوس كان يعلوه قبة ثمانية الشكل ترجع إلى زمن احتلال الرومان لطرابلس الغرب واستدل على ذلك برسمين لمدينة طرابلس الغرب فى القرن السادس عشر الميلادى/ العاشر الهجرى، (شكل ٢، ٣)، ويمثل الشكل الأول مدينة طرابلس الغرب زمن الاحتلال الأسبانى لها (١٥١٠م- ١٥٣٠م)، بينما يمثل الشكل الثانى بداية دخول الأتراك العثمانيين للمدينة (١٥٥٩م).

---

(١) يذكر د. محمد على عيسى أنه يوجد ستة اعمدة فى الواجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية واربع أعمدة فى الواجهتين الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية، وهذا غير موجود فى الواقع. نفس البحث والصفحة.

(2) Aureigemma (Salvatore), Ilcornamento Architettonico Dell Arco Di Marco Aurelio in Tripoli, Africa, Italiania, Vol. 1-2, Roma, 1933, p. 135-161.

ويتضح من الرسمين السابقين أن القوس يتكون من ثلاثة أجزاء معمارية، الجزء السفلى عبارة عن مربع به اربعة عقود فى واجهاته الأربعة، ثم جزء أوسط عبارة عن شكل اسطوانى يحمل الجزء الثالث وهو عبارة عن قبة نصف دائرية.

وقد أعد أوريجيما رسماً تخيلياً للطابق العلوى للقوس مستنداً فى ذلك إلى شكل القوس فى الرسمين السابقين، مع تدعيم رأيه بالاستشهاد ببعض العناصر المعمارية التى تشبه شكل هذا الطابق العلوى[1].

وقد استشهد أوريجيما بضريح "جولى" بمدينة جلانوم بجنوب فرنسا والذى يرجع إلى نهاية القرن الأول الميلادى (لوحة ٢).

ويتكون ضريح "جولى" من قاعدة مربعة مرتفعة مملوءة بالنقوش البارزة تحمل مبنى يشبه فى شكله العام اقواس النصر رباعية الفتحات، يحمل فوقه مبنى اسطوانى الشكل من أعمدة يعلوه مبنى مخروطى.

وقد جانب الصواب سلفاتورى أوريجيما فهو عقد مقارنة بين ضريح وقوس النصر أى بين بنائين مختلفين فى الوظيفة، كما أن أقواس النصر الرومانية كان يعلوها- عادة- سقف مسطح، خاصة اقواس النصر فى مدينة لبدة[2]، ويعارض أورجيما وجود هذا السقف المسطح الذى كان يعلوه عربة تجرها الخيول ويقودها الامبراطور المنتصر، وعادة ما تكون العربة والخيول من الرخام أو البرونز[3] (لوحة٣).

---

(1)Ibid.

(٢) لبدة: احدى المدن الثلاث الشهيرة التى كان يتكون منها إقليم طرابلس (لبدة- أويا- صبراته) من اليونانية ليبتوسة ماغنا Laptis Magna، كانت مستعمرة فينيقية تجارية، ثم استعمرها الرومان فازدهرت وأصبحت من أهم المحطات التجارية فى خليج سرت.

محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقى فى غربى البحر المتوسط، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان (د.ت) ص٩٨.

(3)Azzawi (D), Les arcs de triomphe, These de Doctorate de 3 eme Cycle, Universite, de Paris, 1975, p. 188.

ويرى أوريجيما أنه لو كان هذا البناء السطحي موجوداً فيقوس ماركوس أوريليوس لنقش عليه النقش التذكاري للامبراطور المنتصر، قياساً على النقش التذكاري لقوس النصر الخاص بالامبراطور تبيتوس في روما.

ولو أمعنا النظر في معظم أقواس النصر الرومانية الموجودة في حوض البحر الأبيض المتوسط (شمال افريقيا- فرنسا- ايطاليا) لوجدنا أن النقوش التذكارية لأقواس النصر هذه، قد نقش معظمها على الساكف أو على الافريز أو على كليهما[1]، ويؤكد ذلك بصفة قاطعة وجود النقش التذكاري على ساكف قوس نصر اخر للامبراطور ماركوس أوريليوس نفسه في مدينة لبدة.

لقد سبق أن أشرنا إلى اعتقادأويجيما بوجود قبة ثمانية الشكل تعلو قوس النصر للامبراطور ماركوس أوريليوس بطرابلس، وانها ترجع إلى عصر بناء القوس أثناء الاحتلال الروماني مدللاً على رأيه هذا برسمين لمدينة طرابلس، (شكل ٢، ٣) وبوصف الرحالة العرب والفرنسيين ولم يوفق أوريجيما في فهم النصوص المترجمة من العربية والفرنسية إلى اللغة الايطالية وسوف نستعرض ما ذكره هؤلاء عن مسجد القوس.

١- أقدم من وصف مسجد القوس هو الرحالة العربي العبدري (٦٨٨هـ/١٢٨٩) فيقول "في مقعد القبة صخرة مستديرة منقوشة يحار الناظر إليها في حسن وضعها، وعلى القبة قبة أخرى عالية ومبان مرتفعة"[2].

---

(١) يوجد النقش التذكاري لقوس النصر للامبراطور تيبريوس (٣٥-٣٦م) على أحجار الساكف في مدينة"لبدة"، وكذلك النقش التذكاري لقوس النصر للامبراطور تراجان (١٠٩م-١١٠م) قد نقش على الافريز مرة وعلى البناء السطحي مرة أخرى في كل واجهة من واجهتي القوس الرئيسيتين في مدينة لبدة ايضا، كذلك نجد النقش التذكاري لقوس النصر للامبراطور سبتيموس سفيروس (٢٠٣م) قد نقش على الافريز.

(٢)العبدري (ابو عبد الله محمد بن محمد)، رحلة العبدري المسماه الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم محمد الفاسي، الرباط ١٩٦٨، ص٨٢.

وقد جاء وصف العبدرى للقبة التى كانت تعلو القوس، وصفاً عابراً بدون العناية بذكر التفاصيل، وركزكل اهتمامه على وصف القوس الرومانى باعتباره مبنى جديـر بالاهتمام بسبب اختلاف طرازه ومادة بنائه عن المبانى التى اعتاد رؤيتها فى شمال أفريقيا، ويرى محمد على عيسى أن وصف العبدرى يعتبر دليلاً على أن القبة التى كانت تعلو هذا القوس ترجع للعصر الإسلامى مثلها مثل المبانى المرتفعة المحيطة بها[١].

٢- قام الرحالة العربى التيجانى الذى زار طرابلس بعد العبدرى مباشرة (٧٠٦-٧٠٨هـ/١٣٠٧-١٣٠٩م) فقال "وبين هذه المدرسة وباب البحر[٢] مبنى من المبانى القديمة العجيبة، وهو شكل قبة من الرخام المنحوت المتناسب الأعالى والتحوت، وقد بنى عليها الآن مسجد يصلى فيه[٣].

ويتضح من وصف التيجانى بما لايدع هناك مجالاً للشك أن القبة التى كانت تعلو القوس قد بنيت فى العصر الإسلامى وقت زيارته لطرابلس، كما اشار إلى سبب بناء القبة بأن بعض كبراء المدينة قد حاولوا هدم القوس للحصول على رخامه فقال "ولقد حاول بعض الكبراء هدمها وأخذ رخامها"[٤].

ثانياً: يرفض أورجيما نسبة الجزء العلوى من القوس إلى العصر الاسلامى، ويذكر أنه إذا كان هذا الجزء يرجع إلى العصر الاسلامى، فيجب إيجاد نماذج شبيهة له فى العمارة الإسلامية المبكرة[٥].

---

(١)د. محمد على عيسى، المرجع السابق، ص٢٨.

(٢)لايزال باب البحر موجوداً مما يؤكد أن التيجانى يعنى مسجد القوس هذا، خاصة وأنه الوحيد المبنى بالرخام فى هذا المكان.

(٣)التيجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد)، رحلة التيجانى فى البلاد التونسية والقطر الطرابلسى (٧٠٦-٧٠٨هـ) وقدم لها حسن حسنى عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس ١٩٥٨م، ص٢٥٣.

(٤)التيجانى، المرجع السابق، ص٢٥٣.

(5)Aurigemma, Op. Cit., p. 156.

ونحن نجيبه بأن القباب كانت ولاتزال- من أهم العناصر المعمارية فى العمارة الإسلامية الدينية، وكانت هذه القباب ذات أشكال عديدة فى مظهرها الخارجى، فمنها النصف كروى والمدببة والمخروطية والبصلية والمفصصة والمضلعة، ومن أمثلة هذه القباب قبة الصخرة وقبة الميضأة بصحن مسجد أحمد بن طولون التى تشبه فى شكلها إلى حد بعيد قوس ماركوس أوريليوس، والقبة التى تعلو رواق الصلاة بالمسجد الأموى بدمشق وقبة مسجد عقبة بن نافع وقباب الجامع الكبير بتونس.

ثالثاً: يرى أوريجيما أن الأساسات التى ظهرت فى المجسات التى عملها فى سطح القوس عام ١٩١٢م وهى من الحجر الجيرى، ترجع إلى زمن بناء القوس،ونحن نرى أن هذه الأساسات تهدم وجهة نظر اوريجيما ولا تدعهما، لأن اقوسا النصر الرومانية كانت تبنى من مادة الرخام فقط، كما أن الحجر الجيرى فى الأساسات من نفس نوع الحجر الذى كان مستعملاً حتى وقت قريب فى بناء القباب، وخاصة فى مدن الجبل الغربى[1]، وفى الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى.

وبعد ان قمنا بتفنيد اراء أورجيما، يتبادر إلى الذهن هذا السؤال، وهو هل استخدم الفضاء الداخلى للقوس كبيت للصلاة بجانب الجزء العلوى الذى اضيف فى زمن التيجانى.

وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نقرر ما يأتى:

أ - انه ليس من المعقول استخدام الجزء العلوى كمسجد وترك الجزء السفلى (القوس) وهو الأكثر اتساعاً.

ب- يتضح من قول التيجانى أن الجزء العلوى قد بنى بسبب الخوف من كبراء المدينة أن يهدموا القوس للحصول على رخامه، وليس لإقامة الصلاة حيث يمكن اقامتها داخل القوس.

(١)د. محمد على عيسى، المرجع السابق، ص ٢٦.

مما سبق يتضح أن الفضاء الداخلي كان يستخدم كبيت للصلاة، حيث وجدت كتابات بارزة على الكسوة الجصية التى تغطى الجدران الداخلية للقوس، وقد تم التعرف على التاريخ ٧٥هـ، كما وجدت اثار لسيلان الزيت من المصابيح على الجدران الداخلية للقوس، مما يؤكد استخدام القوس كبيت للصلاة[١].

ويبدو أن هذا لم يكن كافياً لاقناع كبراء المدينة الذين أرادوا هدم القوس باعتباره مبنى يحتوى على نقوش وثنية خارجية حول إلى مسجد فقام الذين يريدون حماية المبنى ببناء القبة العلوية فوق الشكل الاسطوانى حتى يكتسب المبنى مظهراً اسلامياً يقوى موقفهم فى الدفاع عن المبنى، خاصة وأننا لم نجد اثرا لسلم خارجى أو داخلى عند المعاينة لهذا القوس، كما لايوجد رسم لسلم يوصل لهذه القبة(شكل ٤) فىأحدث رسم لهذا المسجد لمدينة طرابلس الغرب أثناء القصف الفرنسى لها عام ١٦٨٥م، فلا يمكن للمصلين الصعود لأداء الصلاة.

ويبدو أن القبة العلوية قد تهدمت بسبب تعرضها للقصف من مدافع الأساطيل الأوربية التى كانت تحصار المدينة، بسبب الصراع للسيطرة على الطريق البحرى فى البحر الأبيض المتوسط فى أوائل القرن الثامن[٢].

مما سبق يمكن أن نقرر أن مسجد القوس هو عبارة عن مبنى رومانى تغيرت وظيفته فى العصر الإسلامى واصبح مسجداً اضيفت إليه فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى قبة علوية فوق رقبة دائرية من الحجر الجيرى، وأنها قد تهدمت على الأرجح فى القرن الثانى عشر الهجرى/ الثامن عشر الميلادى بسبب تعرض المدينة لقصف الأساطيل الفرنسية والانجليزية[٣] (شكل ٤).

---

(١)ذكر نيكولا دى نيكولا عام ١٥٥١م، أن القوس من الداخل يسيل على جدرانه زيت المصابيح ويزدان بالزخارف الجصية.

Nicola de Nocolage, Les Quatre Penis Livers de Navigations et Peregrinations Oriantales, Lyon, 1968, p. 39.

(2)Stuechi (Sandro), Divagozioni Archeolog Iche, Roma, Terme di Bretschneider, 1981, p. 137.

(٣)كاكيا (أ.ج)، ليبيا فى العهد العثمانى الثانى (١٨٣٥-١٩١١)، ترجمة يوسف حسن العسلى، مصر، ١٩٤٦، ص٣٢.

المصادر والمراجع العربية

أ – المصادر

– التيجانى (ابو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد)، رحلة التيجانى فى البلاد التونسية والقطر الطرابلسى، (٧٠٦–٧٠٨هـ) قدم لها حسن حسنى عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس ١٩٥٨م.

– الحموى (ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله)، كتاب معجم البلدان، طبعة أولى، المجلد السادس، مطبعة السعادة، مصر ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.

– العبدرى (ابو عبد الله محمد بن محمد)، رحلة العبدرى المسماه الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم محمد الفاسى، الرباط ١٩٦٨.

ب– المراجع:

– الطاهر الزاوى، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، القاهرة، ١٩٥٤م.

– كاكيا (أ.ج)، ليبيا فى العهد العثمانى الثانى (١٨٣٥–١٩١١)، ترجمة يوسف حسن العسلى، مصر، ١٩٤٦م.

– محمد على عيسى، هل تم تحويل قوس ماركوس أوريليوس إلى مسجد فى العصور الوسطى، مجلة اثار العرب، العدد الثانى مارس ١٩٩١م، طرابلس.

– مصطفى الشويهدى، مدينة طرابلس، مجلة أثار العرب، العدد الأول، ليبيا، ١٩٩٠م.

المراجع الأجنبية

– Aurigemma (Salvatore), il Coronamento Architettonico dell Arco di Marco Aurelio in Tripoli, Africa, Italiania, Vol., 1-2, Roma, 1933.

– Azzawi (D.F) Les arcs de triomphe, These de doctorate, de 3 eme cycle, Universite de Paris, 1975.

- Murabet (M), Some facts About Libya, Malta, 1961.
- Nicola (de Nicolage): Les quatre Premies Livers de Navigotionset Peregrinations Oriantales, Leyon, 1568.
- Picard (Gilbert), Les Trophess Romains, Contribution a la Histoire de La Religion et de L'art Triomph al de Rome, Paris, 1959.
- Stuechi (Sandro), Divagorioni Archeoloiche, Roma, Terme di Bretshneider, 1981.

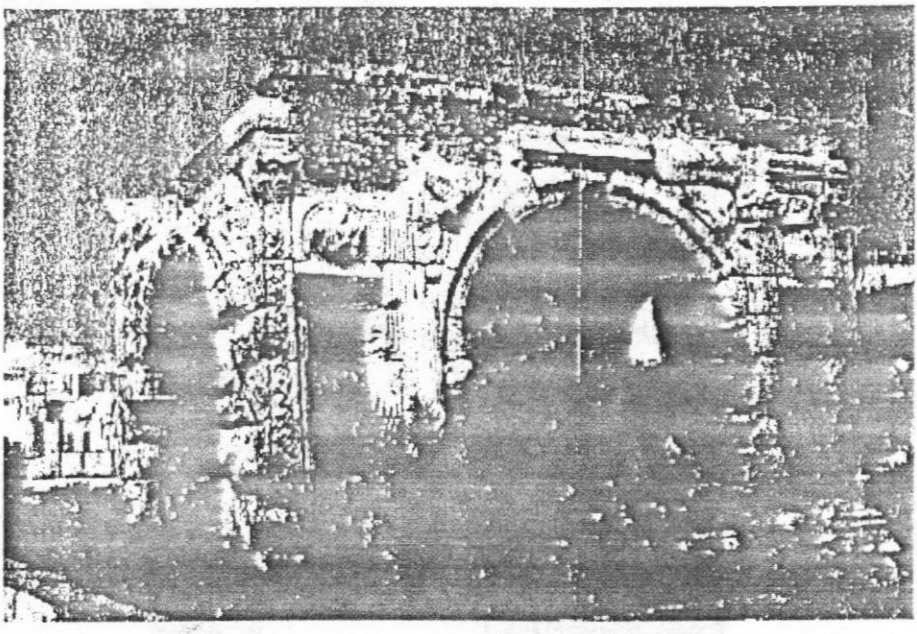

(لوحة ١)

الواجهة الشمالية الشرقية لقوس ماركوس أوريليوس

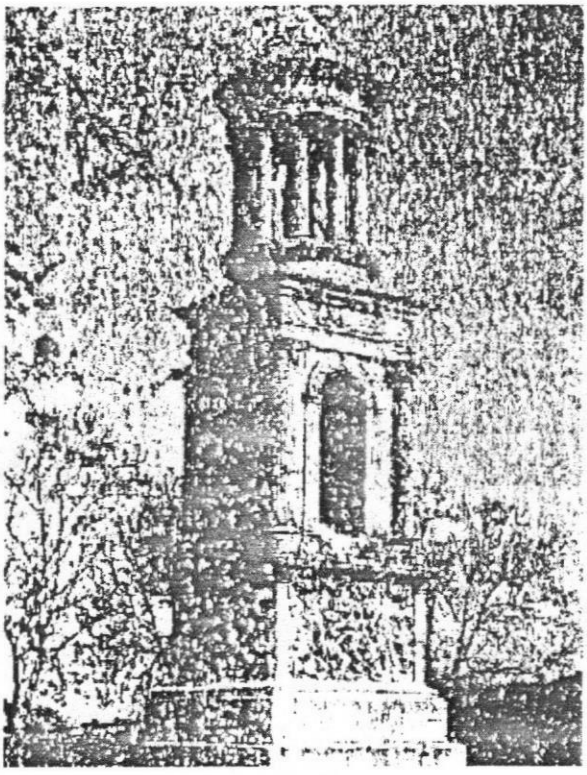

(لوحة ٢)

ضريح جلانوم بفرنسا (نهاية القرن الأول ق.م)

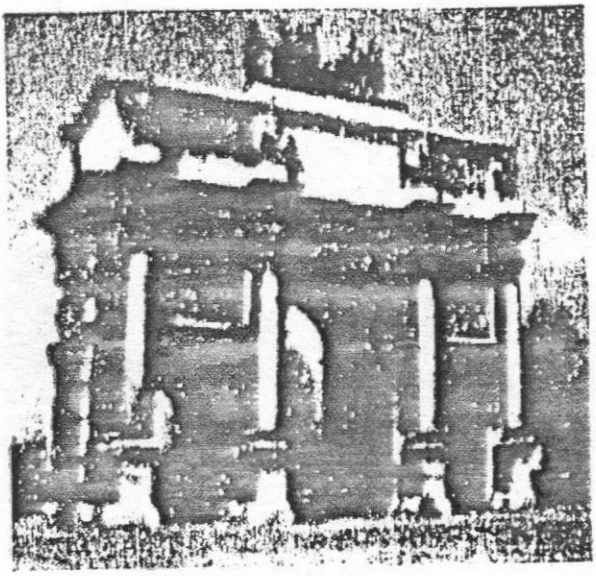

(لوحة ٣)

نموذج قوس نصر تعلوه عربة تجرها الخيول

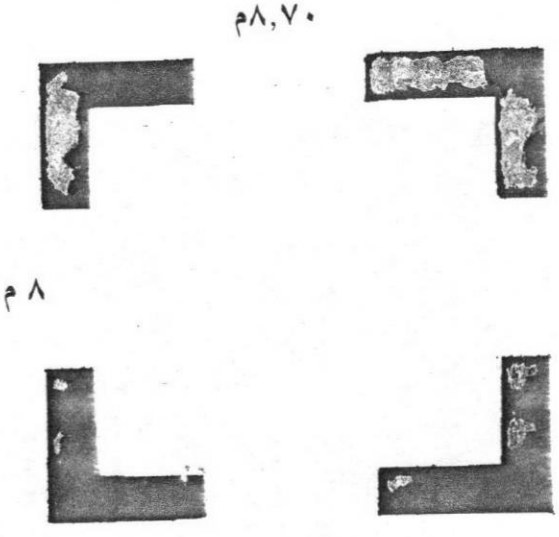

شكل (١)

مسقط افقى لمسجد القوس بطرابلس الغرب

(من عمل الباحث)

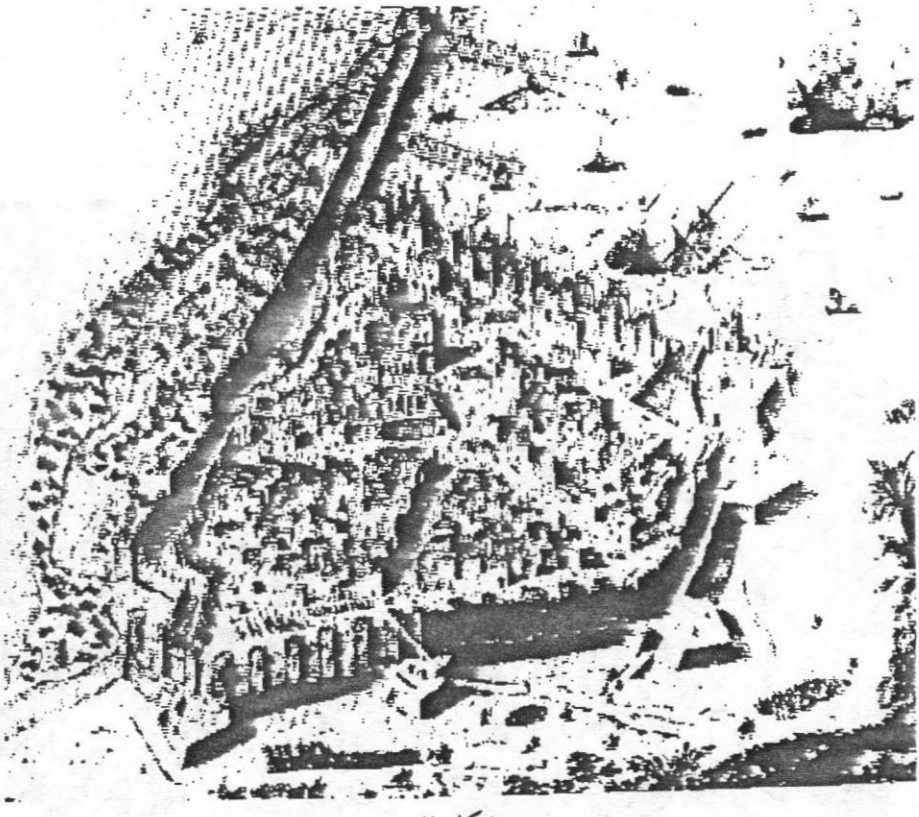

(شكل ٢)

مدينة طرابلس الغرب زمن الاحتلال الأسباني (١٥١٠-١٥٣٠م)

(شكل ٣)

مدينة طرابلس الغرب زمن الفتح العثمانى (١٥٥٩م)

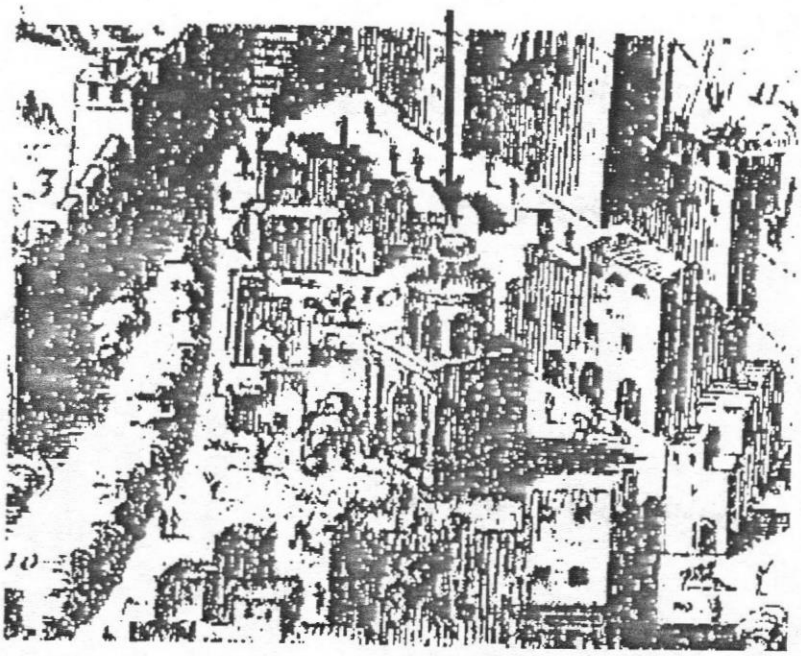

(شكل ٤)

رسم لمسجد القوس أثناء القصف الفرنسى للمدينة عام ١٦٨٥م

أضواء جديدة على بعض التحف التطبيقية التى عثر عليها بحفائر قوص

إعداد

دكتوره/ عائشة عبد العزيز التهامى